رحلوا .. بغير رجعة

من الخواطر تعقيباً على الإنسحاب من غزة

د.م. فريد صبح القيق
مدير مركز عمارة التراث

نهضت صباح ذلك اليوم مضطرباً يعتريني شعور لا أملك له تفسيراً. هل حقاً سأذهب اليوم لرؤية المناطق المحررة؟ وما الذي يجعلني أشعر بهذا الخليط الغامض من الأحاسيس؟. لعل ذلك كان نابعاً من عدم مقدرتي على تحديد طبيعة الرحلة ولا ماهية المشاعر التي قد تعتريني هناك. لقد كان إبني أقدر مني على تحديد غايته من الرحلة، فسارع إلى تحضير شنطته وتزويدها بما تيسر من المأكولات، فقط لم يتجاوب مع رغبات أمه في وضع المزيد من الفواكه في الحقيبة. أجابها بأنه سمع من أصدقائه بأن المستوطنات المخلاة بها الكثير منها. وصلنا الجامعة واقتربنا من الباص المتربص للانطلاق، وأنا مازلت أشعر بالرهبة من الاقتراب. شيء ما بداخلي كان يخشى تبعات هذه الرحلة. إذاً ها هي الفرصة سانحة للإنسحاب، فالباص قد إمتلأ بالطالبات، والمدرسون مازالوا ينتظرون بالخارج. حاولت التملص بحجة أنني لم أحجز لي مكاناً بشكل مسبق ولكن إصرار الزملاء أدخلني الى الباص. بدأنا بالتحرك باتجاه الأراضي المحررة إلى الجنوب، و بدأ قلبي بالإنقباض مع تزايد سرعة الباص. وما أن اقتربنا من أفق الأراضي المحررة حتى بدأت أدرك سبب إحجامي عن هذه المواجهة، لقد بدأ سيل من الذكريات يعتريني... ذكريات موغلة في أعماق القلب كما هي موغلة في ثنايا الذاكرة. بدأت تستيقظ في خلدي ألوان من سياط المعاناة التي كابدها أبناء شعبي للوصول الى هذا اليوم. تساءلت بخاطري، لا شك بأن كل من هم حولي يجتر العديد منها فهاهي أطياف الوجوم تخيم على الباص، فالإحتلال لم يبقي فرداً منا إلا وأدفعه الثمن. وبدأت أسترجع في ذاكرتي عذابات أيام مضت وأمنيات قديمة، كنا نرى زوال الإحتلال فيها عن أرضنا حلماً بعيد المنال وغاية يصعب إدراكها، وبدأت دقات القلب المتسارعة وخلجاتها تدب في جسدي بإيقاع أول قصيدة خطتها يداي مستوحية من خصوصية الموقف ومستلهمة من الجو النفسي الذي وجدتني فيه صرخات انطلقت منذ سنين طوال تخاطب الغزاة بالرحيل وكانت هذه النبضات تردد:

الصخر ينادي
والشجر ينادي
والعشب الأخضر
فلترحل يا جند الباطل ... فلترحل
فالشمس تعانق طفلاً
يحمل قمراً أحمر
الصخر ينادي
والشجر ينادي
والعشب الأخضر
فلترحل ... فلترحل ... فلترحل
يا ليل الغربة في وهج الحجر تبخر
يا وحش الغاصب في وحل الموت تحجر
شفتاي تمزق أنيابك
نسماتي تلفظ أنفاسك
وغبار قلبي زجاج
في عينيك يتكسر
في أرضي... أبداً لن تمكث
أرضي فيها
فيها زيتون يتفجر
وسنابل تغدو أعواد مشانق
وعواصف في بطن جبالي تزأر
فلترحل يا جند الباطل ... فلترحل
فالشمس تعانق طفلاً
يحمل قمراً أحمر
الصخر ينادي
والشجر ينادي
والعشب الأخضر
فلترحل ... فلترحل ... فلترحل
لقد كتبت هذه القصيدة وأنا في سن الثامنة عشر، لقد كانت أول ما سطرت في كتاب الشعر الملقى على الرف منذ سنين. مازلت أذكر اللحظات التي إستفزتني وأخرجت هذه الصرخات من باطني. لقد كانت بداية الإنتفاضة الأولى ... حيث أغلقت قوات الإحتلال جامعة النجاح، حيث كنا ندرس... عدت معه في ذلك الحين في نفس السيارة إلى رفح، كان زميلي في الدراسة منذ الصغر وكنا دائماً نتنافس على المرتبة الأولى في الدراسة (لا شك بأنه قد نال الآن شهادةً لا يستطيع أحد منافسته عليها)، كان له أحلام كبيرة و طموح لا ينقطع. لقد كانت الأحداث ذلك اليوم ساخنة وفجأة بدأ الناس يهرولون إلى بيوتهم، لقد سقط شهيداً في مخيم يبنا. وبدأت قوات الإحتلال في فرض منع التجول. لم يكن هناك سبيل سوى المذياع لمتابعة ما يحدث. وتسمرت أمامه أكاد لا أصدق بأنه قد سقط كما يسقط الأكرمون منا جميعاً. كانت المرة الأولى التي أدرك فيها قسوة الإحتلال و مرارة الفقدان. هل تقضي الرصاصة على كل هذه الأحلام و الطموح؟ تساؤلت حينها، وهل تزهق الأرواح بهذه السهولة. كانت الكتابة في ذلك الوقت هي المتنفس الوحيد لكي تخترق هذه العواطف الجياشة جدار حظر التجوال. يا الله ... لقد مضى ثمانية عشر عاماً أخرى قبل أن تتحقق هذه الرؤيا وها هم يرحلون، يجرون أذيال الخزي والعار. كانت هذه الأفكار تجول في خاطري وأنا أنظر حولي الى هذه التلال الرملية البعيدة وأقول في نفسي وهل كان سيجيء هذا اليوم لولا هذه القطرات التي صبت في بحر التحرير؟ أو ليس أول الغيث دائماً قطرة!.

بدأت الأراضي تلوح في الأفق وتثير في نفسي ملايين الأسئلة والاستفسارات. هل تعرف هذه الأرض مدى التضحيات التي قدمناها لتعود لنا؟ هل هي مشتاقة إلينا مثلنا؟ هل تميز بين خطانا و خطى الغزاة؟ كان الدفء الذي شعرنا به عندما وطأت أقدامنا الأرض المحررة كفيل بأن يأتيني بالجواب، وكانت نسائمها وكأنها تعاتبني .. أو تشك في حبي لكم و تلهفي لمجيئكم، ألا يكفيك دليلاً بأني لفظت الغزاة وأخرجتهم من بين جنباتي صاغرين. نعم خرجوا تاركين ورائهم تلالاً من الخراب. لقد كان يعترينا شعور من نوع خاص عند الإقتراب من بقايا هياكل المستوطنات البائدة، فبين الرغبة في عدم رؤية هذه الموجودات لأنها تذكرنا بمخلفات الإحتلال، وإحساسنا بأن ما تبقى هو أجسام غريبة منبوذة لا تصلح لأن تكون جزءً من أي نسيج عمراني مستقبلي، وبين الرغبة في تجاوز الماضي وإعادة البناء، كانت الأرض أيضاً تعطيني الجواب الشافي، أليس هذا التراب ترابي، إن كل ما صنعوه أو زرعوه فوقي هو أصلاً لم يكن يوماً لهم. كان المشهد فريداً يستحق الكثير من الصور التذكارية التي تسابق الجميع لالتقاطها ولكن السؤال الذي ارتسم على جباه الجميع كان مرئياً بشكل لا تخطئه العيون، هل نستطيع تحويل كل هذا العشق لهذه الأرض الى جنان مزهرة بعد أن تركها الغزاة أكواماً من الركام؟ هل نستطيع أن نقيم فيها المشاريع التي تشعر الإنسان بقيمة هذه الأراضي ويكافئ المعاناة في استخلاصها من براثن الإحتلال. هل نستطيع تعميرها بشكل متوازن يحقق أفضل استثمار لخيراتها، من مناطق صناعية تكفل العيش الكريم للمواطن ومجاورات سكنية تأوي الآلاف المشردين ومناطق زراعية تغنينا عن إهدار أموالنا في أسواق الآخرين، ومناطق خضراء ومحميات طبيعية توفر متنفساً لسكان القطاع المتكدسين وسط الكتل الإسمنتية الصماء، وقبل هذا وذاك بإسلوب تخطيطي مستدام يحفظ التوازن البيئي ولا ينتقص من حق الأجيال القادمة في الإستفادة من هذه المقدرات. من فوق تلة قريبة بدأت أراقب هذه المناطق بعين متفحصة وأتذكر ما كنت أوضحه للطلبة من أن نظام تخطيط المستوطنات يتبع النظام العنقودي لتوفير أقصى حماية ممكنة لها، وكيف كنا وقتها نتفحص الوسيلة المثلى لدمج هذه المستوطنات بالمناطق العمرانية الفلسطينية المجاورة والتي تتبع في معظمها نظام التخطيط الشبكي. ها هو قد حان إذاً الوقت ليحتضن الجسم الفلسطيني هذه المناطق الغالية من تراب الوطن ويصهرها بداخله، ها قد جاء دور المهندسين ليتحملوا المسئولية في إعادة تشكيل معالم هذه الأرض وصبغها بملامح فلسطينية خالصة وبتراث الأجداد الذي حاول الإحتلال جاهداً طمسه. واستمر الباص يقتحم المستوطنات الخاوية إلا من بصمات الهزيمة، ها هي عناقيد القهر تسقط الواحدة تلو الأخرى تحت طياته. توقفنا قليلاً عند أحد المنحنيات للاستراحة وتطوع أحد الزملاء بجلب بعض الفواكه من أحد الحقول المجاورة، سارع الجميع لالتهامها وإن لم يكن بنا الكثير من الجوع، فلقد كان الفضول والشوق لتذوق هذه الثمار من أرض المواصي والتي بقيت لسنين طوال خلف هذه الحواجز تنتظر مستحقيها هو الدافع وراء هذا النهم. لقد كان الولد محقاً في عدم جلب الفواكه البيتية فهذه الفاكهة ليست كغيرها، لها مذاق رائع ... ربما لأنه مذاق بنكهة الإنتصار.

وبعد نهار كامل من التجوال أدار الباص وجهته للعودة، وبدأت أفكر لماذا لم تصل الفرحة بعد إلى قلبي رغم رحيل الغزاة؟ ورغم تمتع ناظري برؤية هذه المناطق؟. هل شريط الذكريات المؤلمة هو ما أضاع هذه الفرحة؟. لا أدري لماذا بدأت في رحلة العودة أسترجع قصيدتي الأولى مرة أخرى من جديد ... فلترحل يا جند الباطل ... فلترحل ... آه نعم رحلوا ... ولكن الفرحة لم تكتمل بعد، بدأت أستشعر ذلك عندما بدأ الباص يتجه شمالاً وكذلك عيناي. كان الباص يسرع الخطى فلقد تأخر الوقت. كان الجميع يريد الخلاص من ظلمة الليل ويعود الى بيته حيث الضياء. فجأة انعطف الباص باتجاه الغرب فأدركت تماماً لماذا كانت عيناي شاخصتان طوال الوقت باتجاه الشمال، ولماذا كانت الفرحة بزوال الإحتلال عن غزة منقوصة؟! نعم هي القدس ... درة المدائن... مازالت هناك تنتظر قدوم الصباح.